بحث بعنوان :

الحِرَف الصناعية وأنواعها في مدينتي البصرة والكوفة

(40 – 132 هـ / 660 – 750 م)

"Industrial crafts and their types in my cities Basand Kuf"

40 _120ه 750_660 /م

اعداد الطالب:

عبدالباسط حسن الكيلانى

AbdulBasit Hussein kilan

الملخص باللغة العربية

يتناول هذا البحث دراسة الحِرَف الصناعية في مدينتي البصرة والكوفة خلال الفترة الإسلامية المبكرة، مركزاً على تنوعها، تطورها، وأهميتها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية يستعرض البحث الصناعات اليدوية مثل النسيج، الفخار، الحدادة، صناعة السفن، والجلود، إلى جانب حِرَف أخرى كان لها دور بارز في ازدهار النشاط الاقتصادي للمدينتين كما يناقش تأثير الموقع الجغرافي والتبادل التجاري على تطور هذه الصناعات، بالإضافة إلى دور الحِرفيين في دعم الاقتصاد المحلي ويبرز البحث الدور المحوري لهذه الحِرَف في صياغة الهوية الثقافية والحضارية للمنطقة.

الكلمات الافتتاحية : النشاط الاقتصادي ،الحِرَف الصناعية ، الكوفة ، البصرة

Second: Abstract (English)

This research examines the industrial crafts and their various types in the cities of Basra and Kufa during the early Islamic periods. It focuses on their development, economic significance, and social impact. The study highlights traditional industries such as textile production, pottery, metalwork, shipbuilding, and leather manufacturing. It also analyzes the role of geographical location and commercial exchange in promoting these crafts. Furthermore, the research emphasizes the contribution of craftsmen to the local economy and the importance of these industries in shaping the cultural and civilizational identity of the region.

Keywords (English): Economic activity, industrial crafts, Kufa, Basra

المقدمة

تُعدّ الحِرَف الصناعية من أهم المظاهر الحضارية التي تعكس مستوى التقدم الاقتصادي والاجتماعي لأي مجتمع. وقد حظيت مدينتا البصرة والكوفة بمكانة بارزة في التاريخ الإسلامي، لما تمتعتا به من نشاط تجاري وثقافي وعلمي واسع. وأسهم هذا النشاط في ازدهار العديد من الصناعات والحِرَف اليدوية التي لبّت حاجات السكان وساعدت في دعم الاقتصاد المحلي.

ويهدف هذا البحث إلى دراسة هذه الحِرَف، وتحليل أنواعها، والكشف عن العوامل التي ساعدت على تطورها، مع بيان أثرها في الحياة اليومية للسكان وفي الحركة التجارية داخل العراق وخارجه.

أهمية البحث

تتمثل أهمية هذا البحث فيما يلي:

1. إبراز الدور الاقتصادي للحِرَف الصناعية في مدينتي البصرة والكوفة.
2. توثيق جانب مهم من التراث الحضاري الإسلامي.
3. المساهمة في دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمدينتين.
4. تسليط الضوء على مكانة الحِرَفيين ودورهم في بناء المجتمع.
5. الإفادة من التجربة التاريخية في دعم الصناعات التقليدية المعاصرة.

أهداف البحث

يسعى البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

1. التعريف بأهم الحِرَف الصناعية في البصرة والكوفة.
2. دراسة تطور هذه الحِرَف عبر العصور الإسلامية المبكرة.
3. تحليل العوامل الجغرافية والاقتصادية المؤثرة في ازدهار الصناعات.

4. توضيح العلاقة بين الحِرَف والنشاط التجاري.
5. بيان أثر الصناعات التقليدية في الحياة الاجتماعية والثقافية.

أسباب اختيار الموضوع

يرجع اختيار هذا الموضوع إلى عدة أسباب، من أهمها:

1. قلة الدراسات المتخصصة في الحِرَف الصناعية في البصرة والكوفة.
2. أهمية المدينتين التاريخية في الحضارة الإسلامية.
3. الرغبة في إبراز دور الصناعات اليدوية في بناء الاقتصاد المحلي.
4. الاهتمام بتوثيق التراث الصناعي والحِرَفي.
5. ارتباط الموضوع بمجال التاريخ الاقتصادي والاجتماعي.

اولا : النشاط الحرفي والصناعي في البصرة

اشتهرت البصرة منذ القدم بحرف ومهن وصناعات مختلفة، لعدة أسباب منها: موقعها الجغرافي والظروف المناخية وخصوبة أرضه ووفرة مياهه حيث جعلت من خيراته وموقعه بيئة خصبة لازدهار النشاط الحرفي ونشوء الصناعات، وما أن أصبحت مدينتى البصرة والكوفة جزءا من الدولة الإسلامية في فترة صدر الإسلام والدولة الأموية بعد الفتوحات واتساع رقعتها الجغرافية، أسهم الخلفاء المسلمين وولاتهم بالعمل على تنشيط الحياة الاقتصادية وتطورها، فالصناعات والحرف تشكل جزءا مهما في حياة المدن، حيث تأثرت الحرف والصناعات فيهما بالبيئة الاقتصادية المحيطة بها، كما وتأثرت الصناعات والحرف بطبيعة ما تنتجه أراضي البصرة والمدن والأقاليم المحيطة بها، حيث كان النشاط الزراعي هو النشاط الرئيسي فيه، حيث يعد نشاط بدائي لا يرتقي أن يدخل بحرف وصناعات تحويلية لمنتوجات النشاط الزراعي، فظهرت وتطورت نتيجة لذلك حرف وصناعات تعتمد في موادها الخام على القطاع الزراعي، مثل: صناعة النسيج وصناعة والسكر وعسل التمر وانتشار المطاحن كما واكبت الصناعة حركة التطور العمراني من هاتين المدينتين، فظهرت وتطورت

صناعة مستلزمات البناء واتقان هذه الحرفة ، إضافة إلى تأثر الصناعة بالأزمات السياسية والعسكرية التي رافقت هذه الفترة [1].

ويقدم ابن مالك تلخيص في شرح التسهيل قائلا: وقصد الحرف بفعالة كالنجارة والخياطة والنساجة والحياكة والصناعة والحراثة والفلاحة والكتابة، والمراد بشبه الحرف الولايات كالإمارة والعرافة والوزارة والنقابة، وكون فعال لما فيه تأب والصراف [2].

إن التطور في الحياة الاقتصادية الذي أصاب مدينة البصرة في النشاط الزراعي بشقيه التنظيمي والإصلاحي لم يتوقف عند الزراعة فقط، وإنما كان أهل الأمصار الجديدة مثل: البصرة الذي يغلب عليهم طابع البداوة والزراعة وجزء كبير منهم كانوا من المقاتلين، إلا أن النشاط الحرفي كان في خضم التطور ضمن عجلة الحياة الاقتصادية في البصرة ، فموقعها الجغرافي جعل منها قبلة ومركزا مهما لكثير من الحرف والصناعات واشتهرت البصرة بعدد من الحرف اليدوية والصناعية والمعمارية ، فكانت حرف ومهن تدعم النشاط الأهم وهو النشاط الزراعي الذي كان يعد من أهم الأنشطة في تلك الفترة، وتطورت هذه الحرف مع تطور الحياة الاقتصادية.

النشط الحرفي في البصرة

حرفة البناء

نالت حرفة البناء في البصرة تطورا ملمومنا عند اختطاط مدينة البصرة، فقد رافقت التمصير وظاهرة التمدن، حيث كان لابد من البناء والإعمار والتطور، ومن هنا بدأت هذه الحرفة تشتهر في البصرة، يذكر البلاذري قائلا: هذه أرض نضرة قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب وكتب إليه أن أنزلها الناس، فأنزلهم إياها، فبنوا مساكن بالقصب وبنى عتبة مسجدًا من قصب، وذلك في سنة أربع عشرة، فيقال أنه تولى اختطاط المسجد بيده ويقال اختطه محجر بن الأدرع البهزى ([3]) ويقال اختطه نافع بن الحارث بن كلدة ([4]) حين بنى داره وبنى عتبة دار الأمارة دون المسجد في الرحبة التي يقال لها اليوم رحبة بنى هاشم وكانت تسمى الدهناء ([5]) وفيها السجن والديوان فكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه حتى يرجعوا من الغزو، فإذا رجعوا أعادوا

بناءه فلم تزل الحال كذلك، ثم أن الناس اختطوا وبنوا المنازل وبنى أبو موسى الأشعرى المسجد ودار الأمارة باللين والطين وسقفها بالعشب وزاد في المسجد، وكان الإمام إذا جاء للصلاة بالناس تخطاهم إلى القبلة على حاجر، فخرج عبد الله بن عامر ذات يوم من دار الأمارة يريد القبلة وعليه جبة خز دكناء فجعل الأعراب يقولون على الأمير جلد دب[6].

تظهر رواية البلاذري أن البصرة تم تخطيطها ومن ثم بناؤها بأيدي أهلها وساكنيها، وهذا يدل على مهارتهم واتقان حرفتهم في البناء، حتى وإن تضاربت في الرواية الأقوال من الذي بنى المسجد فهذا يدل على كثرة من امتهنوا هذه الحرفة، وقد استعملوا في بناء بيوتهم القصب والبردي، ثم الآجر والجص.

ويكمل البلاذري توصيف حرفة البناء في البصرة، وكيف تطورت في هذه الفترة قائلا: وحدثني أبو محمد الثوري عن الأصمعي قال : لما نزل عتبة بن غزوان الخريبة، ولد بها عبد الرحمن بن أبي بكرة، وهو أول مولود بالبصرة فنحر أبوه جزوراً [7] أشبع منها أهل البصرة، ثم لما استعمل معاوية بن أبي سفيان زيادًا على البصرة زاد في المسجد زيادة كثيرة وبناء بالأجر والجص وسقفه بالساج، وقال: لا ينبغي للإمام أن يتخطى الناس، فحول دار الإمارة من الدهناء إلى قبلة المسجد فكان الإمام يخرج من الدار في الباب الذي في حائط القبلة، وجعل زياد بن أبيه حين بني المسجد ودار الإمارة يطوف فيها وينظر إلى البناء ثم يقول لمن معه من وجوه أهل البصرة أترون خللا فيقولون ما نعلم بناء أحكم منه فقال: بلى هذه الأساطين[8] التي على كل واحدة منها أربعة عقود لو كانت أغلظ من سائر الأساطين

وقال الوليد بن هشام بن قحذم لما بنى زياد بن أبيه المسجد جعل صفته المقدمة خمس سوارى[9] ونرى مدح الشعراء بوصف المسجد بناه لذكر الله وأنه من الحجارة وليس من الطين ويستغرب الشاعر لولا تعاون الناس بالبناء، لقلت أنه من صنع الشياطين وبني منارته ونقل دار الإمارة إلى قبلة المسجد وكان بناؤه إياها من لبن وطين حتى بناها صالح بن عبد الرحمن السجستاني مولى بنى تميم في ولايته خراج العراق لسليمان بن عبد الملك بالآجر والجص وزاد فيه عبيد بن زياد بن أبيه وفي مسجد الكوفة (انظر ملحق 5) وقال دعوت الله أن

يرزقني الجهاد ففعل، ودعوته أن يرزقني بناء مسجدي الجماعة بالمصرين ففعل، ودعوته أن يجعلني خلفا من زياد بن أبيه ففعل [10].

إن هذه الروايات تبين لنا مدى تطور حرفة البناء من القصب والبردي بداية اختطاط بيوت البصرة ثم الأجر والجص ثم من الحجارة والسقف من الساج، ومنارة المسجد تحديدا بنيت من الحجر، حتى أبدوا استغرابهم ودهشتهم من حرفة البناء كيف بنيت ولولا تعاون الناس لقلنا كما كانت من أعمال الشياطين

حرفة النقش بالحجر

تطورت حرفة البناء لتكون أكثر دقة من السابق، حيث أصبحت نقشاً بالحجر، إن هذا النوع يعد من أصعب الحرف ،وأدقها، ولربما تأثرت مدينة البصرة بمن حولها بهذه الحرفة، وتحديدًا جاء هذا التأثير من بلاد فارس التي كانت مشهورة بالنقش على الحجر وبناء قصورهم شاهدة على ذلك، حيث يذكر الحموي قائلا: إن أرض المسجد كانت تربة فكانوا إذا فرغوا من الصلاة نفضوا أيديهم من التراب، فلما رأى زياد بن أبيه ذلك قال: لا أمن أن يظن الناس على طول الأيام أن نفض اليد في الصلاة سنة، فأمر يجمع الحصى والقائه في المسجد الجامع، ووظف ذلك على الناس، فاشتد الموكلون بذلك على الناس وأروهم حصى انتقوه فقالوا : أتونا بمثله على قدره وألوانه وارتشوا على ذلك فقال: يا حبذا الإمارة ولو على الحجارة فذهبت مثلا [11].

ويتابع الحموي قوله : أدخلوا الحجارة والحصى الملونة لأرض المسجد فادخلوا الزخارف والنقوش على هذه الحجارة بأرض المسجد، فأمر بإدخال الزخارف والنقوش وطلب منه أن ينقش الأمارة على الحجارة"، ويذكر الحموي أيضا "ولما قدم الحجاج خبر أن زيادا بنى دار الأمارة فأراد أن يذهب ذكر زياد بن أبيه منها فقال: أريد أن أبنيها بالأجر، فهدمها، فقيل له: إنما غرضك أن تذهب ذكر زياد بن أبيه منها، فما حاجتك أن تعظم النفقة وليس يزول ذكره عنها .. فقال له سليمان أعدها، فأعادها بالجص والأجر على أساسها الذي كان ورفع سمكها، فلما أعاد أبوابها عليها قصرت [12]

يفهم من ذلك أنه لو أراد إعادة ترميم وتغيير بعض المعالم لزوال اسم زياد فرد سليمان له أنه سوف تزيد اسمه ثباتًا وتوكيدًا لأنه سوف يدوم عمر هذا البناء إضافة لدقة الاتقان في العمل فاستعمل صالح بن عبد الرحمن

على خراج العراق فحدثه صالح حديث الحجاج وما فعل في دار الأمارة فأمره بإعادتها فأعادها بالأجر والجص على أساسها ورفع سمكها، فلما ولى عمر بن عبد العزيز وولى عدى بن أرطاة الفزاري البصرة أراد عدى أن يبنى فوقها غرفاً[13].

وقد تطورت هذه الحرفة في النقش والبناء، لبناء من عدة أدوار ذوي طوابق متعددة بالأجر والجص، أن هذا التطور الملحوظ في حرفة النقش على الحجر يوضح حقيقة مفادها أن هذه الحرفة ليست وليدة اللحظة وإنما تطورت وتأثرت بالأقاليم وثقافات الحضارات المجاورة.

حرفة الحمامات :

اشتهرت البصرة أيضا بحرفة الحمامات ، فكانت تدر دخلًا كبيرًا على من يعمل بها، حتى وإن كانت هذه الحرفة دخيلة على المجتمعات العربية والإسلامية، إلا أنها تطورت وازدهرت في البصرة، فهذه الحرفة تعكس اهتمام أهل البصرة بالجانب الصحي ومدى انتشاره بينهم، ويذكر البلاذري مسترسلا بأقواله عن حرف البصرة في هذه الفترة كان أول حمام اتخذ بالبصرة حمام عبد الله بن عثمان ابن أبي العاصي الثقفي، وهو موضع بستان سفيان بن معاوية الذي بالخريبة وعند قصر عيسى بن جعفر ثم الثاني حمام فيل مولى زياد ثم الثالث حمام مسلم بن أبي بكرة في بلالاباذ، وهو الذي صار لعمرو بن مسلم الباهلي، فمكنت البصرة دهرًا وليس بها إلا هذه الحمامات [14].

يتبين أنه لم تكن البداية إلا ثلاث حمامات وقد ذكرها البلاذري لكن العدد الكلي للحمامات في البصرة قد تجاوز أربعة عشر ،حمام، وهذا كله بفعل تطور هذه المهنة أو الحرفة وكذلك التنافس على العمل فيها، وذكر البلاذري: قال أبو بكرة لابنه :مسلم يا بنى والله ما تلي عملا وما أراك تقصر عن إخوتك في المنفعة، فقال: إن كتمت على أخبرتك ، قال فإني أفعل، قال: فإني أغتل من حمامي هذا في كل يوم ألف درهم وطعامًا كثيرا ، ثم أن مسلمًا مرض فأوصى إلى أخيه عبد الرحمن بن أبي بكرة وأخبره بغلة حمامه، فأفشى ذلك واستأذن السلطان في بناء حمام، وكانت الحمامات لا تبنى بالبصرة إلا بإذن الولاة فأذن له فاستأذن عبيد الله بن أبي بكرة فأذن له، واستأذن الحكم ابن أبي العاصي فأذن له، واستأذن سياه الأسوارى فأذن له، واستأذن الحصين ابن أبى الحر العنبري فأذن له واستأذنت ربطة بنت زياد فأذن لها واستأذنت لبابة بنت أو في الجرشي فأذن لها في

حمامين أحدهما في أصحاب البقاء، والآخر في بني سعد، واستأذن المنجاب بن راشد الضبي فأذن له. وأفاق مسلم بن أبي بكرة من مرضه وقد فسدت عليه غلة حمامه فجعل يلعن عبدالرحمن ويقول ما قطع الله رحمه .[15]

تبين هذه الرواية حرفة الحمامين ومهنتهم في حمامات البصرة حتى أن مسلم قال لأبيه أنه يغتل من حمامه ألف درهم في اليوم، حتى أنه طلب من أبيه الكتمان، حتى لا ينافسه أحد بحرفته التي كانت تدر عليه خيرًا، ويبدو أن مهنة العمل في الحمامات لم تقتصر على الرجال فقط، فقد كان للنساء نصيب من هذه الحرفة والعمل في الحمامات، فلربطة حمام ولبابة [16] حمامين بعد استئذانهم؛ لأن إقامة الحمامات لم تكن مسموحة إلا بإذن الخليفة (السلطان)[17].

ويوجد في البصرة حمامًا يعرف بحمام الأمراء حيث جاء أنه من المظاهر الحضارية في رحبة بني هاشم[18]حمام الأمراء[19]

إلا إن الحسد قد أدرك هذه الحرفة بين ممتهنيها، وذلك نتيجة لما تدره من أموال ونفع على من يعملون فيها.

يقول البلاذري: "فأدركهما الحسد، فقال أنس: أجزيا أبا الأسود قال هات، فقال:

لعمر أبيك ما حمام كسرى على الثلثين من حمام فيل

وكلامه يدل على أن مهنة الحمامات هي عادات دخيلة وليس من سنة الرسول ﷺ ، ومن الحمامات أيضا حمام أفراذادان [20] ، وذكر الجاحظ وحمام أفراذادان في قنطرة قرة [21].

حرفة استصلاح البطائح وتنشيفها (النباطين)

اختص بهذه الحرفة أناس معينون يسمون بالنبط، وحرفتهم هي استصلاح أرض البطائح المغمورة بالمياه وتجفيفها ثم استصلاحها، حتى أنهم كانوا يتقاضون ثمن استصلاحهم وأجورهم كانت جزء من الأراضي المستصلحة، فلما ولى معاوية بن أبي سفيان ولي عبد الله بن دراج مولاه خراج العراق، واستخرج له من

الأرضين بالبطائح ما بلغت غلته خمسة آلاف ألف (5 ملايين درهم). وذلك أنه قطع القصب وغلب الماء بالمسنيات ثم كان حسان النبطي مولى بني ضبة وصاحب حوض حسان بالبصرة، والذي تنسب إليه منارة حسان بالبطائح – فاستخرج للحجاج أيام الوليد، ولهشام بن عبد الملك أرضين من أراضي البطيحة ... واستخرج حسان النبطي لهشام أرضين من أرضى البطيحة أيضاً[22] ، تحولت هذه الحرفة فيما بعد من حرفة عادية إلى أحد أدوات الإصلاح الزراعي الذي طال أرض البصرة والبطائح خاصة.

حرفة صرامين[23] التمور

تتجلى أهمية هذه في كونها تعد الحرفة عملية حماية للتمور من الغربان في ذلك الوقت، ولغاية الآن تستخدم هذه الطريقة والحرفة لأجل حماية التمور من جائحات الطيور المهاجرة وخاصة أن البصرة تعتمد اعتماد شبه كليا سابقا ولاحقا على إنتاج التمور، حيث كان لابد من وجود هذه الحرفة وانتشارها لحماية هذا الإنتاج، يذكر الحموي عن الجاحظ بذكره ثلاث أعجوبات عن البصرة التي ليست في غيرها من البلدان فيذكر الأعجوبة الثالثة، أن الغربان القواطع في الخريف يجيئ منها ما ينتشر على جميع نخل البصرة وأشجارها حتى لا يرى غصن واحد إلا وقد تأطر[24] بكثرة ما عليه منها ولا كربة غليظة إلا وقد كادت أن تندق لكثرة ما ركبها منها، ثم لم يوجد في جميع الدهر غراب واحد ساقط إلا على نخلة مصرومة ولم يبق منها عذق واحد، ومناقير الغربان معاول وتمر الأعذاق في ذلك الإبان غير متماسكة، فلو خلاها الله تعالى ولم يمسكها بلطفه لاكتفى كل عذق منها بنقرة واحدة ولك يبق عليها إلا اليسير ثم هي في ذلك تنتظر أن تصرم فإذا أتى الصرام على آخرها عذقاً.

رأيتها سوداء ثم تخللت أصول الكرب فلا تدع حشفة[25] إلا استخرجتها [26]) ولا يقتصر عملهم على صرم التمور وحمايتها من الحر والطيور المهاجرة وإنما امتازوا بتكريب النخيل وهي إزالة الأدغال عن النخلة وهذا ما يزيد من وفرة إنتاج النخيل.

حرفة صيد السمك واستخراج اللؤلؤ :

إن موقع البصرة الممتد بجوار النهر إلى البحر جعل منها موقعا مهما لصيد الأسماك واستخراج اللؤلؤ، على مدار الزمن ومنذ القدم حتى يومنا هذا، وبشرح بسيط عن موقع البصرة النهري والبحري، حيث يلتقي في مدينة البصرة نهري دجلة والفرات بنهر واحد يسمى شط العرب في منطقة القرنة وهي أحد أقضية البصرة، فالبصرة هي المدينة الوحيدة في العراق التي تقع على النهر والبحر، وكانت ولا زالت حرفة صيد الأسماك متوارثة آلاف السنين، حيث تشكل رافد تجاري مهم للمدينة وأهلها، ويوجد من الأسماك السمك النهري والسمك البحري بأنواعه واللؤلؤ الذي يتركز في هذه المنطقة من الخليج، الذي كان يستخدم في صناعة الحلي، وهذه الحرفة جمعت بين الهواية والحاجة والصناعة والتجارة معا.

يقول الجاحظ : فأما بحرنا هذا فقد طم على كل بحر وأوفي عليه؛ لأن كل بحر في الأرض لم يجعل الله فيه من الخيرات شيئًا إلا بحرنا هذا، الموصول ببحر الهند إلى ما لا تذكر وأنت تسمع بملوحة ماء البحر، وتستسقطه وتزري عليه والبحر هو الذي يخلق الله تعالى منه الدر الذي بيعت الواحدة منه بخمسين ألف دينار ؛ ويخلق في جوفه العنبر، وقد تعرفون قدر العنبر. فشيء يولد هذين الجوهرين كيف يحقر ؟ ولو أنا أخذنا خصال هذه الأجمة وما عظمنا من شأنها، فقذفنا بها في زاوية من زوايا بحرنا هذا لضلت حتى لا نجد لها حسا، وهما لنا خالصان دونكم وليس يصل إليكم منهما شيء إلا بسببنا وتعدينا فضل غنا[27] وهذه الرواية تبين مدى فائدة بحر البصرة لساكنيها، وخاصة ان الجاحظ قد امتاز بمدح البصرة في أماكن كثيرة، وما ينقل عن رجالاتها تفاخرهم بمدينة البصرة وخيراتها، وبعيدًا عن رواية الجاحظ وتفاخره بالبصرة فالحق يقال أن البصرة لغاية الآن هي سلة العراق الاقتصادية بأكثر من 90% من وارداته الاقتصادية.

أِشهر الصناعات في البصرة :

كانت للصناعة في البصرة شهرة واسعة وتأثرت بباقي الحرف والمهن لتكون هنالك صناعة في البصرة، تتداخل مع بعض النشاطات الاقتصادية، لكي تحول ما تنتجه هذه الأنشطة وعلى رأسها النشاط الزراعي إلى منتوجات صناعية تساهم قدر الإمكان في تطور الحياة الاقتصادية، يذكر المقدسي: وقال عبد الرحمن بن أخي الأصمعي دخلت على الجاحظ فقلت: أفدني في البلدان فائدة، قال: نعم الأمصار عشرة المروءة ببغداد والفصاحة بالكوفة

والصنعة بالبصرة [28]، ولعل ما ذكره المقدسي من أوجه المقارنات التي تحصل دائما بين مدينتي البصرة والكوفة بأسواقهما ومدارسهما النحوية وإلى غيره الكثير من المقارنات التي عرفت عبر التاريخ.

وقال البلاذري: وقد كان خالد بن صفوان واليا على البصرة من قبل عبد الملك ابن مروان فوافق عنده وفود جميع الأمصار وقد اتخذ مسلمة مصانع له، فسأل عبد الملك أن يأذن للوفود في الخروج معه إلى تلك المصانع، فأذن لهم، فلما نظر إليها مسلمة أعجب بها فأقبل على وفد أهل مكة فقال : يا أهل مكة هل فيكم مثل هذه المصانع؟ فقالوا: لا إلا أن فينا بيت الله المستقبل، ثم أقبل على وفد المدينة فقال: هل فيكم مثل هذه المصانع؟ فقالوا: لا إلا أن فينا قبر نبي الله المرسل، ثم أقبل على وفد أهل الكوفة فقال : يا أهل الكوفة هل فيكم مثل هذه المصانع؟ فقالوا: لا إلا أن فينا تلاوة كتاب الله المرسل، ثم أقبل على وفد أهل البصرة: فقال: يا أهل البصرة هل فيكم مثل هذه المصانع؟ فتكلم خالد بن صفوان وقال: أصلح الله الأمير، إن هؤلاء أقروا على بلادهم ولو أن عندك من له ببلادهم خبرة لأجاب عنهم، قال: أفعندك في بلادك غير ما قالوا في بلادهم قال: نعم، أصلح الله الأمير، أصف لك بلادنا؟ فقال هات قال: يغدو قانصنا فيجيى هذا بالشبوط والقيم ويجيئ هذا بالطبي والظليم، ونحن أكثر الناس عاجا وساجاً وخزاً وديباجاً وبرذوناً[29] هملاجاً[30] وخريدة مغناجاً بيوتنا الذهب ونهرنا العجب أوله الرطب وأوسطه العنب وآخره القصب، فأما الرطب عندنا فمن النخل في مباركه كالزيتون عندكم في منابته هذا على أفنانه كذاك على أغصانه، هذا في زمانه كذاك في إبانه، من الراسخات في الوحل المطعمات في المحل الملقحات بالفحل يخرجن أسفاطا عظامًا وأقساطا ضخاما، وفي رواية يخرجن أسفاطا وأقساطا كأنما ملئت رباطا، ثم ينطلقن عن قضبان الفضة منظومة باللؤلؤ الأبيض ثم نتبذل قضبان الذهب منظومة بالزبرجد الأخضر ثم تصير ياقوتاً أحمر وأصفر ثم تصير عسلاً في سنة من سحاء ليست بقربه ولا إناء حولها المذاب ودونها الجراب لا يقربها الذباب مرفوعة عن التراب ثم تصير ذهبا في كيسة الرجال يستعان به على العيال، وأما نهرنا العجب فإن الماء يقبل عنقا فيفيض مندفقا فيغسل عنها

ويتضح من هذه الرواية أن خالد ابن صفوان يصف حال البصرة ونخلها وعجب النهر فيها بحركة المد والجزر وأنهم يأخذون حاجتهم منه وهم نيام على فرشهم بدون حجاب، وكيف حال نخل البصرة وتمورها ورطبها وكيف يصنعون عسل التمر منها (الدبس)، وقدم إليها الكثير من الصناع المهرة من مختلف الأمصار، وبقدوم الصناع

والحرفيين كثرة الحرف والصناعات، ومنها صناعة الحلي فأشتهر أهل البصرة بصناعة الحلي التي كانت قائمة على استخراج الحلي من البحر كونها مطلة على البحر (الخليج)، واشتهرت مدينة البصرة أيضا بإتقان وصناعة الخزف التي نقلوها إلى سامراء، وهذا ما ذكره اليعقوبي عندما أراد المعتصم أن يبني مدينة سرى من رأى (سامراء) حيث قال: وأقدم المعتصم من كل بلد من يعمل عملا من الأعمال، أو يعالج مهنة من مهن العمارة والزرع والنخل، والغرس، وهندسة الماء، ووزنه، واستنباطه، والعلم، وحمل من البصرة من يعمل الزجاج والخزف والحصر [31].

ويذكر الحموي نهر يسمى الجوبرة حيث قال: وفي كتاب البصرة لأبي يحيى الساجي: نهر الجوبرة[32] من أنهار البصرة القديمة، وكان ماء دجلة ينتهي إلى فوهة الجوبرة فيستنقع فيه الماء مثل البركة الواسعة فكان أهل البصرة يدنون منه أحيانًا ويغسلون ثيابهم وكانت فيه أجاجين وأنقرة وخزف وآلات القصار فلذلك سمي نهر الإجانة [33] ، وهذا نهر سمي بالبصرة بالإجانة لكثرة الخزف والأجاجين فيه وهو دليل على صنعة أهل البصرة واتقائهم للخزف وصنع الإجانة، ولغاية الآن تطلق هذه المفردة الاجانة أو الانجانة في العراق ويتفق عليها أكثر العراقيون بلهجة واحدة وهي الاناء الذي يعجن فيه الدقيق يدويًا، كما كان يصنع في البصرة والأبلة المراكب والزوارق الخشبية التي تجوب مياه البصرة والأبلة وبين أنهارها ومجاريها وفي حدود البصرة وبين عماراتها وقراها أجام كبيرة وبطائح ماء معمورة وتسير عليها السماريات والزوارق بالمدافع لقرب قعرها وارتدام مجاريها بالتراب وربما زادت الأمطار في أوقات الشتاء فحملت دجلة والفرات وصبت في هذه الأنهار سيولها فحفرت منها موضعاً وردمت آخر [34].

صناعة المنسوجات

اهتم زياد بن أبيه بصناعة المنتوجات النسيجية، إذ يعتبر أول من أدخل صناعة المنسوجات الكتانية إلى البصرة التي شهدت توسعا ملحوظا، واشتهرت البصرة بصناعة أجود أنواع الخز [35] والبز [36]، وذكر المقدسي: "وأما البطائح فنبط لا لسان ولا عقل، ولا بأس بالتجارات فيه ألم تسمع

بخز البصرة وبزها وطرائفها وبارزها هي معدن اللآلئ والجواهر وفرضة البحر ومطرح البر وبها يصنع الراسخت[37] والزنجفر[38] والمرداسنج[39] ومنها تحمل التمور إلى الأطراف والحناء، ولهم خز وبنفسج وما ورد وبالأبلة تعمل ثياب الكتان الرفيعة على عمل القصب [40] .

ويتبين مدى تأثر وتطور النشاط الصناعي في البصرة بالمناطق المحيطة بها.قال ابن الفقيه وقالوا: أبعد الناس نجعة في الكسب بصري، وحميري، ومن دخل فرغانة القصوى، والسوس41الأقصى، فلا بد أن يرى فيها بصريا، أو حميريا على أن أهل أصبهان والخوز معروفون بذلك، ويجد في كل بلد منهما صفا قائماً42 وهناك من يذكر أن هذه الفترة قد شهدت صناعات أخرى كانت من مستلزمات الحياة الاجتماعية، ومنها العمائم واللحف والفوط ونشطت كذلك صناعة الزيوت والشموع والصابون المستخرج من زيت بذور السمسم والزيتون وهناك روايات تاريخية توكد ظاهرة التخصص في البصرة، حيث كان أصحاب كل مهنة يجتمعون معا في محل واحد مكونين سوقا فرعية صغيرة داخل السوق الكبير[43].

ويذكر أن البصرة قد وصلت في هذه الفترة إلى مستوى عالي من الرخاء حتى أصبحت المساكن لا تبنى إلا من خشب الساج، وتفنن كذلك أهل البصرة في صنع أبواب البيوت وجعلوا سقوفها من جذوع النخيل[44].

لعل هذه الثقافة قد امتدت للزمن الحاضر فتعرف بيوت البصرة القديمة المصنوعة أبوابها وسقوفها ونافذاتها من الخشب بالشناشيل [45] أو المشربية وتبنى المشربية من الخشب المنقوش والمزخرف والمبطن بالزجاج الملون، وتعدّ المشربية كذلك إحدى عناصر العمارة التقليدية الصحراوية في البلاد العربية الحارة.

وذكر الاصفهاني قائلا: أحرق دار ابن الزبير من عبد الرحمن بن أم الحكم إلى معاوية .... فتظلم منه وقال: أحرق لي دارا قد قامت علي بمائة ألف درهم، فقال معاوية: ما أعلم بالكوفة دارا أنفق عليها هذا القدر، فمن يعرف صحة ما ادعيت؟ قال: هذا المنذر بن الجارود حاضر ويعلم ذلك، فقال معاوية للمنذر : ما عندك في هذا ؟ قال إني لم أبه لنفقته على داره ومبلغها ولكني دخلت الكوفة وأردت الخروج عنها، أعطاني عشرين ألف

درهم وسألني أن ابتاع له بها ساجاً[46] من البصرة[47] ، والبيت كان في الكوفة لكن شراء الساج كان من البصرة وهذه دلالة على شهرة البصرة بصناعة الساج، وذكر السمعاني كلمة الساجي: بفتح السين المهملة وبعدها الجيم، هذه النسبة إلى الساج وهو خشب يحمل من البحر إلى البصرة يعمل منه الأشياء، انتسب إلى بيعه أو عمله جماعة قديما وحديثا، منهم أبو يعلى زكريا بن يحيى بن خلاد المساجي البصري[48].

ثانيا : النشاط الحرفي والصناعي في الكوفة

لا تختلف الحرف والصناعة في الكوفة كثيرًا عن مدينة البصرة؛ وذلك لعدة أسباب منها : الموقع الجغرافي كونهما يقعان في إقليم واحد وهو إقليم العراق، بالإضافة إلى التقارب الزمني في فترة تأسيس وتمصير المدينتين، وأنهما على مسار واحد من الوسط إلى الجنوب الشرقي، فيجعل من هذا المسار والمحيط الإقليمي المحيط بالمدينتين تشابه الحرف والصناعات لدرجة كبيرة ، ومن هذه الحرف والصناعات :

أولاً : الحرف فى الكوفة :

حرفة البناء والاختطاط :

نالت حرفة البناء في الكوفة (أنظر ملحق رقم 1) نصيبا مهما من تطور هذا النشاط فبدأت هذه الحرفة بداية بسيطة ثم تطورت مع مرور الوقت، فبيوت الكوفة عند تأسيسها كانت خياما، وهذا ما يناسب حياة المقاتلين فيها، ثم تطور بناء البيوت فيها من القصب، لكن سرعان ما احترقت هذه البيوت أو الأكواخ التي كانت تسمى الأخصاص، وحول هذا يذكر الطبري قائلا: فاحترق ثمانون عريشاً، ولم يلق فيها قصبة في شوال فما زال الناس يذكرون ذلك قبعث سعد منهم نفرا إلى عمر يستأذنون في البناء باللبن، فقدموا عليه بالخبر عن الحريق، وما بلغ منهم... فقال: أفعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا في البنيان [49].

يتبين أن البيوت في الكوفة كان يدخل في بنائها القصب والبردي وكانت تسمى أخصاص قال: الأخصاص بيوت عندنا من قصب [50] ، فتطورت هذه الحرفة لتكون اختطاطا وهندسة معمارية، فبدأ اختطاط الكوفة وهي خطط لقبائل العرب [51] ، وخصصت لكل قبيلة خطة، أي منها أراضي محددة تسمى باسم القبيلة، واحتفظت

هذه الخطط بأسماء قبائلها لعدة قرون، وظهر البناء في الكوفة بشكل أكثر تطورًا ودقة، حيث يذكر البلاذري: ... أن العرب بمنزلة الإبل لا يصلحها إلا ما يصلح الإبل فارتد لهم موضعا عدنا ولا تجعل بيني وبينهم بحرا، وولى الإختطاط للناس أنا الهياج الأسدي... فلما انتهى إلى موضع مسجدها أمر رجلا فعلا بسهم قبل مهب القبلة فاعلم على موقعه ثم علا بسهم آخر قبل مهب الشمال وأعلم على موقعه ثم علا بسهم قبل مهب الجنوب وأعلم على موقعه ثم علا بسهم قبل مهب الصبا فاعلم على موقعه، ثم وضع مسجدها ودار أمارتها في مقام العالي وما حوله، وأسهم لنزار وأهل اليمن بسهمين على أنه من خرج بسهمه أولا فله الجانب الأيسر وهو خيرهما، فخرج سهم أهل اليمن فصارت خططهم في الجانب الشرقي وصارت خطط نزار في الجانب الغربي من وراء تلك العلامات [52] . وكان هذا الإختطاط بمثابة عمل هندسي وأساس متين للبناء فلم يكن بناءها واختطاطها من فراغ بل تم اختيار المكان والاتجاهات وهبوب الرياح، متفقاً مع متطلبات مدينة جديدة مهيأة أن تكون معلم حضاري وإسلامي واقتصادي.

تطورت هذه الحرفة في الكوفة فيما بعد لتشمل أبنية أكثر وأجزاء أوسع في المدينة، وفي هذا السياق يذكر ابن كثير: فكان أول بناء وضع فيها المسجد... فرمى من المسجد إلى الأربع جهات فحيث سقط سهمه بنى الناس منازلهم، وعمر قصرًا تلقاء محراب المسجد للأمارة وبيت [53] .

كان المسجد أول بناء في الكوفة، وبناء المساجد أصبحت سنة متبعة من قبل بناة المدن، حيث يتصدر بنائها أولويات خطط المدينة، ويذكر البلاذري: .... ثُمَّ أن المغيرة بن شعبة وسعه وبناه زياد بن أبيه فاحكمه وبنى دار الأمارة (انظر: ملحق 4) ، وكان زياد بن أبيه يقول: أنفقت على كل أسطوانة [54] (انظر ملحق 7) من أساطين مسجد الكوفة ثماني عشرة ومائة، وبنى فيها عمرو بن حريث المخزومي بناء، وكان زياد بن أبيه يستخلفه على الكوفة إذا شخص إلى البصرة، ثُم بنى العمال فيها فضيقوا رحابها واقنيتها ... زاد المغيرة في مسجد الكوفة وبناه ثُمَّ زاد فيه زياد، وكان سبب إلقاء الحصى فيه [55].

إن تطور حرفة البناء والإختطاط في الكوفة منذ بناء الخيام إلى تطورها، وبناءها بالقصب والبردي إلى اختطاط المدينة بشكل معماري وبناءها بالأجر والجص، في فترات متعاقبة بسيطة ما هو إلا شاهدًا على تطور هذه الحرفة وبيان مدى أهميتها للناس في تلك الفترة.

حرفة الحمامات

رسمت الحمامات في الكوفة مظهر حضاري آخر، كما هو الحال في مدينة البصرة، كما كانت الحمامات ومهنتها موروثة عن الساسانين والرومان، ويؤكد ذلك أن مهنة الحمامات هي موروث غير عربي لكنها اشتهرت ببلاد العرب حديث أبو داود وابن ماجه عن ابن عمر – أن رسول الله ﷺ قال: "إنكم ستفتح لكم أرض العجم، وستجدون فيها بيوتا يقال لها الحمامات، فلا يدخلنها الرجال إلا بإزار ، وامنعوها النساء إلا مريضة أو نفساء[56]. وكانت هذه الحمامات تلبي حاجات الناس خاصة في الوضوء والاغتسال .

ومرت حمامات الكوفة بمراحل تطورها حالها حال أغلب الحرف والمهن، ويذكر البلاذري حول هذا الموضوع: وأخبرني أبو الحسن علي بن محمد وأبو مسعود قالا: حمام أعين نسب إلى أعين مولى سعد بن أبي وقاص، وأعين هذا هو الذي أرسله الحجاج ابن يوسف إلى عَبْدِ اللهِ بْن الجارود... وسمعت أن الحمام قبله كان لرجل من العباد يقال له جابر أخو حيان الَّذِي ذكره الأعشى وهو صاحب مسناة جابر بالحيرة فابتاعه من ورثته، وقال ابن الكلبي وبيعة بني مازن بالحيرة لقوم من الأزد من بني عمرو ابن مازن من الأزد وهم من غسان، قال: وحمام عُمر نسب إلى عُمر بن سعد بن أبي وقاص.قالُوا وشهار سوج بحيلة بالكوفة إنما نسب إلى بني بحلة وهم ولد مالك [57].

حرفة الخط والنسخ

كان للخط الكوفي والخطاطون بصورة عامة نصيب من حرف ومهن الكوفة حيث كانت هذه الحرفة تجمع بين إتقان التركيب وجمال الصورة، ومهارة الأداء، وكذلك دقة الصنعة اليدوية التي يتمتع بها الخطاطون البارعون

في الكوفة، حتى وإن كان أصل الخط الكوفي ليس بكوفي الأصل حسب ما تورده الروايات ونسب إلى الكوفة لظهوره لأول مرة بها في الإسلام [58].

والواقع أن هذا الخط الكوفي قد سمي بهذا الاسم لعناية الكوفة به وليس لأنه نشأ فيها، إلا أنهم لما وصل إليهم هذا الخط وأصبحت مهنتهم، فإنهم اتقنوها وكانت مصدر رزق وشهرة لهذه المدينة. فكان كثير من الخطاطين يكتبون المصاحف بأجر، ثم زادت نسخ المصاحف بأجر في هذه الفترة، وأصبحت هناك مراكز تعمل فيها مجموعة من الكتبة والخطاطون المتميزون بالخط الواضح، لنسخ القرآن الكريم للناس بأجر، ومما يزيد في ترجيح ذلك أن الحجاج بن يوسف الثقفي عندما أمر بحرق أو إتلاف المصاحف عند المسلمين التي لم تكن تتطابق مع المصاحف الأئمة المعتمدة التي كانوا يجدونها في المساجد الجامعة في الكوفة والبصرة والمدن الكبيرة، وتعويض كل واحد منهم بستين درهما ليتمكنوا من نسخ مصاحف جديدة لهم)

وأهم الخطاطين في هذا العصر خالد بن أبي الهياج قال محمد بن إسحاق أول من كتب المصاحف في الصدر الأول ويوصف بحسن الخط خالد بن أبي الهياج رأيت مصحفا بخطه وكان سعد نصبه لكتب المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبد الملك وهو الذي كتب الكتاب الذي في قبلة مسجد النبي ﷺ بالذهب من: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) [59]. ، إلى آخر السورة ويقال أن عمر بن عبد العزيز قال أريد أن تكتب لي مصحفا على هذا المثال فكتب له مصحفا تنوق فيه فأقبل عمر يقلبه ويستحسنه واستكثر ثمنه فرده عليه ومالك بن دينار مولى أسامة بن لؤي بن غالب ويكنى أبا يحيى وكان يكتب المصاحف بأجرة ومات سنة ثلاثين ومائة [60]. ومالك ابن دينار كان يكتب المصحف بأجر في البصرة.

و أول من كتب في أيام بني أمية قطبة وهو استخرج الأقلام الأربعة واشتق بعضها من بعض وكان قطبة أكتب الناس على الأرض بالعربية [61].

النشاط الصناعى فى الكوفة :

اشتهرت الكوفة بالصناعة ومهنة الحدادين، والحدادة أو القين أحد المهن والحرف الصناعية المشهورة بالكوفة فقد لاقت نشاطا وتطورا سريعا بهذه الفترة نظرا للحاجة إليها.

وكان الهالك أول من عمل الحديد وكان يعيرون بذلك، فقال سماك للأخطل : ويحك ما أعياك أردت أن تمدحني فهجوتني"[62]

ويعرف الحداد بالقين كذلك عند الجاهليين وهو الذي يعد للزراع الأدوات التي تستعمل في حرث الأرض، مثل: المحراث والمنجل والأدوات... ولذلك قيل لبني أسد: القيون... وعرف القين الذي يقوم بطبع السيوف وصقلها بـ الطباع والصقل [63] ، وتشتهر الكوفة حتى عصرنا الحالي بالحدادة والصناعة في العراق في مهن بغاية التعقيد كنظيرتها من الشمال الموصل والأخرى في الشام حلب، واشتهرت الكوفة أيضا بمهنة الدهان وصنعته بدليل حمل الدهانين لأعمار مدينة سامراء التي شيدها الخليفة العباسي المعتصم، حيث يذكر اليعقوبي وحمل من الكوفة من يعمل الأدهان، ومن سائر البلدان من أهل كل مهنة وصناعة فأنزلوا بعيالهم بهذه المواضع وأقطعوا فيها وجعل هناك أسواقا لأهل المهن بالمدينة [64].

صناعة المنسوجات

اشتهرت الكوفة كذلك بالنسيج وصناعة الثياب حيث ذكر الجاحظ وخير (الوشي[65] في الثوب) السابري والكوفي[66] ، وعرفت الكوفة بصناعة العمائم وبالكوفة عمائم الخز والبنفسج في غاية الجودة [67]، ومن الصناعات الأخرى التي وجدت في الكوفة صنع الخيام، وهي: على عدة أنواع عندهم، فالخيمة المصنوعة من الصوف تسمى خباء، والخيمة المصنوعة من الشعر تسمى بالفسطاط والخيمة المصنوعة من الوبر تسمى بالبجاد، والخيمة المصنوعة من القطن بالسرادق والخيمة المصنوعة من الجلد تسمى الطراف، وقد ذكر الشيباني برواية حول أحد أنواع هذه الخيام حيث يقول: "باب إجازة الفسطاط والخيمة والأوتاد والجُزب[68] والبيوت ومتاع مكة وإذا

استأجر الرجل فسطاطا يخرج به إلى مكة ذاهبًا وجائيًا ويحج ويخرج من الكوفة. صناعة الصاغة ظهرت في الكوفة الصياغة وهي صناعة الذهب والفضة وقد تأثرت بهذه الصنعة من مدينة الحيرة قبل تمصير الكوفة، وبعد بناء مدينة الكوفة لاقت هذه الصناعة رواجًا شديدًا وإقبالا كبيرا، وكانت أدوات الزينة للنساء أهم هذه الصناعة، فكان يتم صناعة الأكاليل والأساور والخلاخيب[69] والعقود

والخواتم والقلادات، وكان لهذه الصناعة سوقا خاصة في الكوفة قرب المسجد الجامع يسمى بسوق الصاغة[70].

يبدو أن الحرف والصناعة في مدينتي البصرة والكوفة شهدتا تطورا ملحوظا في الحياة الاقتصادية فواكبتا عجلة التطور الاقتصادي والحركة العمرانية التي شهدتها المدينتين، وإن هذه الفترة المراد دراستها في بحثنا

هذا، كانت الفيصل بين بدائية الحياة الاقتصادية وتطورها في مهن وحرف وصناعات مهمة في حياتهم، رغم كل الظروف التي مرت بها المنطقة في ذلك الوقت.

ويلاحظ أيضا أن تطور المهن والحرف والصناعات في البصرة خلال فترة وجيزة وكذلك في الكوفة. ولعل تقصير المدنيتين كان عاملا أساسيًا لظهور مهن وحرف وصناعات تحاكي تمصير المدينتين، ويبدو كذلك أن بالرغم من وجود بعض التفاوت في النشاط الحرفي والصناعي بين البصرة والكوفة، إلا أنه بالمجمل العام لهذا النشاط ترى تقارب وتشابه كثير في الحرف والصناعات لأسباب ذكرت سابقا منها: الموقع الجغرافي والبيئة المحيطة اقليما، بالإضافة إلى أن هذه الفترة لم تكن عهد ازدهار واضح كما حدث في القرون التي تلتها.

الخاتمة

في نهاية هذا البحث حول الحرف الصناعية وأنواعها في مدينتي البصرة والكوفة، يتضح أن الصناعات الحرفية كانت تشكل جزءًا أساسيًا من الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لهاتين المدينتين. لم تقتصر هذه الحرف على توفير الاحتياجات المعيشية للسكان فقط، بل تخطى دورها ليشمل دعم التجارة والحركة الاقتصادية محليًا ودوليًا، مما ساهم في ازدهار المدينتين خلال العصور الإسلامية المختلفة.

أظهرت الدراسة تنوعًا كبيرًا في الصناعات، شمل النسيج والفخار والجلود والمعادن وصناعة السفن، مما يعكس مستوى راقيًا من المهارة والتنظيم لدى الحرفيين. كما يُظهر هذا التنوع قدرة

المجتمع المحلي على استغلال الموارد الطبيعية المتاحة لتحويلها إلى منتجات تخدم الحياة اليومية وتلبي احتياجات الأسواق. وكان للموقع الجغرافي المميز للبصرة والكوفة، واتصالهما بطرق التجارة البرية والبحرية، أثرٌ كبير في دعم هذه الأنشطة الصناعية وتنميتها.

سلط البحث الضوء أيضًا على الأبعاد الاجتماعية لهذه الحرف التي ساهمت في تشكيل طبقة مهنية واسعة كان لها دور فاعل في النسيج الاجتماعي. هذه الطبقة كرّست قيم العمل والإبداع والتعاون، وكانت بعض الحرف جزءًا من التقاليد والعادات المحلية، مما جعلها رمزًا للهوية الثقافية والحضارية ومرآة لاستمرارية التراث عبر الزمن.

مع ذلك، أظهرت الدراسة أن تطور الحرف الصناعية لم يكن مستقرًا دائمًا؛ فقد تأثر بالحالة السياسية والاقتصادية والتحولات الاجتماعية. ففي الفترات التي شهدت اضطرابات أو أزمات اقتصادية، تراجعت بعض الصناعات التقليدية أو ضعفت. وفي المقابل، شهدت الفترات المستقرة ازدهار هذه الحرف وتوسعها. كما أدى إدخال أنماط إنتاج جديدة، خاصة في مراحل لاحقة، إلى تقليل أهمية بعض الحرف اليدوية أو اختفائها تمامًا.

بناءً على ما سبق، تظهر أهمية دراسة هذا الجانب من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لفهم أعمق لمسار التطور الحضاري في العراق الإسلامي. تسهم مثل هذه الدراسات في الحفاظ على التراث الحرفي وإبراز دوره الثقافي والاقتصادي، بالإضافة إلى دراسة إمكانيات دعم الصناعات التقليدية وإحيائها في العصر الحديث.

يوصلنا البحث إلى أن الحرف الصناعية في البصرة والكوفة لم تكن مجرد نشاط ثانوي أو محدود التأثير، بل كانت ظاهرة متكاملة لعبت دورًا جوهريًا في ازدهار المدينتين وتقدمهما. هذا المجال البحثي يحظى بأهمية علمية وثقافية كبرى، حيث يساهم في توثيق الذاكرة التاريخية وتعزيز الوعي بقيمة التراث الصناعي في بناء الحاضر والتخطيط لمستقبل أكثر ارتباطًا بجذور الماضي.

الهوامش

1) كج جي : صباح اسطفيان ، الصناعة في تاريخ وادي الرافدين (د.د) ،بغداد 2002م، ص86 -88
2) الصراف: من يبدل نقذا بنقد، والصرافة مهنة الصراف والمستأمن على أموال الخزانة، يقبض ويصرف يستحقها، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة، القاهرة (د. (ت) ص ،513
3) ابن مالك : محمد بن عبدالله ابن مالك الطائي الجياني ، شرح تسهيل الفوائد، مج 4 تح عبد الرحمن السيد محمد بدوي المختون، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، 1990م، ج 3، ص 469
4) محجر بن الأدرع البهزي: هو محجر أو محجن بن الأدرع الأسلمي، من بني أسلم بن أفقا بن حارثة بن عمرو بن عامر، كان قديم الإسلام عداده في البصرين، ويقال أنه من اختط مسجد البصرة ابن الأثير جامع الأصول، ص 840
5) نافع بن الحارث هو نافع ابن الحارث أبو عبد الله الثقفي سكن البصرة، وهو أول من اقتنى الخيل بالبصرة وسال عمر بن الخطاب أن يقطعه بالبصرة، فكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري أن يقطعه عشرة أحبريه، ليس فيها حق مسلم ولا معاهد ففعل فنزل بالبصرة، الأصبهاني : أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران معرفة الصحابة 7 مج، تح: عادل يوسف الفراري، دار الوطن الرياض، 1998م، ص 678،
6) الدهناء :الفلاة، والدهناء موضع كله ،رمل، وقيل: الدهناء موضع من بلاد بني تميم مسيرة ثلاثة أيام لا ماء فيه، يمد ويقصر ابن منظور، لسان العرب، ج 13، ص 163
7) البلاذري: احمد بن يحيى بن جابر ،(1992) ،فتوح البلدان، تحقيق ابراهيم بيضون ، دار اقرأ ، بيروت ، ص 373.
8) جزورا : بعيرا ذكر كان أو أنثى، إلا أن اللفظة مؤنثة. ابن الأثير (أبو السعادات)، جامع الأصول، ج 7، ص .490
9) الأساطين: الحجارة المنحوتة من الرخام النقي ، الفاسي، محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، أبو الطيب المكي ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، 2 مج، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ج 2، ص 309،
10) السواري: السارية مفرد، والجمع سواري، مثل جارية جواري، وهي الاسطوانة انظر: التميمي، أبو عبد الرحمن عبدالله بن عبد الرحمن بن صالح بن محمد بن حمد بن إبراهيم البسام، توضيح الأحكام في بلوغ المرام، 7 مج مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، ط ،5 ،2003، ج 2، ص 118
11) البلاذري: المصدر السابق، ص 338-339
12) الحموي : شهاب الدين ابو عبدالله الحموى ،(2008) معجم البلدان، ج2، تحقيق محمد عبدالرحمن ، دار احياء التراث العربى ، بيروت ، ج1، ص 434
13) الحموي : المصدر السابق، ج1، ص 434
14) البلاذري : المصدر نفسه، ص 340
15) البلاذري : المصدر نفسه ، ص 343
16) البلاذري: المصدر نفسه ، ص 344
17) لبابة: هي لبابة بن أوفي الجرشي، فأذن لها في حمامين أحدهما في أصحاب البقاء، والآخر في بني سعد ، البلاذري، فتوح البلدان، ص 344
18) ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع الزهري ، الطبقات الكبرى، 8 مج، تح محمد عبد القادر عطاء الكتب العلمية، بيروت، 1990م، ج 7، ص 124
19) رحبة بني هاشم رحبة أرض واسعة بني هاشم، نسبة إلى هاشم بن عبد المناف أحمد مختار، معجم اللغة، ص 869.
20) ابن الفقيه: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني ،(1996) ، البلدان، مكتبة عالم الكتب ، بيروت ، ص 174
21) حمام أفرادان أحد الحمامات التي بنيت بالبصرة ذكره الجاحظ، الجاحظ البرصان والعرجان والعميان والحولان ، تح :عبد السلام محمد ،هارون دار الجيل بيروت 1990م، ص 261
22) قنطرة قرة: منسوب إلى قرة بطن من عبد قيس فهم مسلم العنزي وقيل : كان ينزل قنطرة قرة فنسب إليها، وهي منطقة في البصرة، ابن الأثير ، جامع الأصول، ج 12، ص 805

23) البلاذري: المصدر السابق ، ص 358-259
24) الصرامين الصرح الكدس المصروم من الزرع ونخل، والصرمة بالضم ما صرم من النخل عن اللحياني، وقد تطلق الصرام على النخل نفسه. الزبيدي، تاج العروس، ج 32، ص 506
25) تأطر وتأطر بالمكان تحسيس وتأطر الرمح تتنى، أي انثى أو ثناه بكثرة ما عليه من حمل، الزبيدي، تاج العروس، ج 10، ص 64
26) حشفة التمرة اليابسة. الزبيدي، تاج العروس، ج 11، ص 146
27) الحموي: المصدر السابق ، ج 1، ص 440
28) الجاحظ : ابو عثمان عمرو بن بحر البصرى ، رسائل الجاحظ ، ج 4، ص 147
29) المقدسي : احسن التقاسيم ص 33
30) برذوناً : والجمع براذين، والأنثى برذونة، من الخيل ما كان من غير نتاج العرب ابن منظور، لسان العرب، ج 13، ص 51 (عظيم الخلقة غليظ الأعضاء قوي الأرجل عظيم الحوافر)..
31) هملاجاً: (السير في سرعة وبخترة) ابن منظور، لسان العرب، ج 2، ص 350
32) اليعقوبي : احمد بن اسحاق ابو يعقوب ، البلدان، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2002 ج 1، ص 109
33) نهر الجويرة: محله بأصبهان، وبالبصرة الجويرة وهو نهر معروف بها ابن عبد الحق مراصد الإطلاع، ج1 ، ص 354
34) الاجانة: إناء يغسل فيه الثياب والانجانة لغة تمتنع الفصحاء من استعمالها، ثم استعير ذلك وأطلق على ما حول العراس، وهو ما يحوط على الشجر كالحوض ليستقر الماء فيه عند سقيه ويقال له بالفارسية إكانة والجمع أجاجين ابن منظور، لسان العرب، ج 8 ص ،13 الرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (660هـ - 1261م) مختار الصحاح مكتبة لبنان بيروت، 1986م، ص 14
35) الحموي: معجم البلدان، ج 5، ص 317
36) الإدريسي: محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق 2 مج، عالم الكتب، بيروت، 1989م، ج ،1 ص ،385
37) الخز: هو الحرير ، والجزار هو بائع الخز أي بائع الحرير. الحمداني، ياسر بن أحمد بن محمود بن أحمد بن أبي الحمد الكويس حياة التابعين، ص 1450
38) البز: الثياب والبزار بائع الثياب الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم ، مجمع الأمثال 2 مج تح محمد محيى الدين عبد الحميد دار المعرفة ،لبنان، (د.ت)، ج 2، ص 78
39) الراسخت: حجر من مادة أنتيمون. رينهارت دوزي، تكملة المعاجم، ج 3، ص 72
40) الزنجفر: صبغ، أي معروف، وهو أحمر يكتب له ،ويصبغ الزبيدي، تاج العروس، ج 11، ص 458
41) المرداسنج : المرتك (الركوه) المقعد الزبيدي، تاج العروس، ج 27، ص 170
1) المقدسي : شمس الدين ابو عبد الله محمد ،(1991) احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، ط 3 ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ص 128
42) السوس: بلد في المغرب كانت الروم تسميها قمونية وقيل: السوس كورة مدينتها ،طنجة، وهناك السوس الأقصى والسوس الأدنى، الحموي، معجم البلدان، ج3، ص 281
43) ابن الفقيه : المصدر السابق، ص 109
44) جواد علي (ت: 1408هـ - 1988م)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 20 مج، دار الساقي، بيروت، ط 4 ، 2001م ، ج13، ص 228
45) سعدون : بن حسين ، البصرة ذات الوشاحين (التاريخ والسياسة والثقافة) (2500 ق. م 191م)، مكتبة مدبولي، القاهرة 2006م ،(د.ص)،

46) الشناشيل: هو عنصر معماري يتمثل في بروز الغرف في الطابق الأول أو ما فوقه، يمند فوق الشارع أو داخل داخل فناء المبنى في البيوت ذات الأفنية الوسطية universalis.fr . مؤرشف من الأصل في 27 سبتمبر 2013م، تمت زيارة الموقع 1 رمضان 1442هـ الموافق 413 2021م الساعة العاشرة والنصف مساء.
47) الساج: ضرب من الشجر يعظم جدًا ويذهب طولا وعرضا وله ورق كبير واحدته ساحة، الأصفهاني،الأغاني، ج 7، ص 253
48) الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد الأصفهاني ، (2016) ، الأغاني، تحقيق د. إحسان عباس ود. إبراهيم السعافين والأستاذ بكر عباس. ، دار صادر . بيروت ، ج 7، ص 253
49) السمعاني: أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي المروزي (ت: 562هـ - 1666م)، الأنساب 13 مج، تح عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، الناشر مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد 1962م، ج 7، ص 10
50) الطبري: محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم ، ج 5، دار المعارف ، القاهرة (د . ت) ، ص 44
51) ابن حجر العسقلاني: المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، 19 مج، تج: سعد بن ناصر بن عبدالعزيز الشثري، دار العاصمة، دار الغيث السعودية، 1998م، ج 17، ص 150
52) المنجم إسحاق بن الصين ت ق 4هـ - 1010م) آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان عالم الكتب، تح فهمي ،سعيد، بيروت، 1988م، ص 38
53) البلاذري: المصدر السابق، ص 270
54) ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن درع القرشي البصروي ثم الدمشقي أبو الفداء عماد الدين ،البداية والنهاية، 21 مج، تح عبدالله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، السعودية 1997م، ج 10، ص 34.
55) اسطوانة: وهي مفردة أساطين وتعني الرخام التقى الفاسي شفاء الغرام، ج 2، ص 309.
56) البلاذري: المصدر نفسه، ص 271-272
57) أبو داوود: سنن أبي داوود، ج4، ص 39
58) البلاذري: المصدر نفسه ، ص 276
59) جواد : ،(2001م) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام20 مج، دار الساقي، بيروت، ط 4 ، ج13ص 172
60) صالح عبد العزيز حميد : تاريخ الخط العربي عبر العصور المتعاقبة، 3 مج، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971م، ج 1، ص 219.
61) سورة الشمس: آية (1)
62) ابن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي (ت: 4385 - 1047م) الفهرست تح إبراهيم رمضان ،ط ،2 ، دار المعرفة، بيروت، 1997م، ص 17
63) ابن النديم : المصدر السابق ، ص 17
64) البلاذري: المصدر نفسه ، ص 278
65) جواد: المفصل في تاريخ العرب، ج 10، ص 242-244
66) اليعقوبي : احمد بن اسحاق ابو يعقوب،(2002) ، البلدان، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص 65
67) الوشي: النقش في الثوب، كمثل الوشي في الثوب الديباج، فإنه إذا كان ملونا أحسن منه إذا كان من لون واحد ابن الأثير، أبو الفتح نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، ضياء الدين (ت: 637 - 1240م)، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور تح مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي العراق 1938م، ص 56،
68) الجاحظ : التبصرة بالتجارة في وصف ما يستظرف في البلدان من الأمتعة الرفيعة والأعلاق النفيسة والجواهر الثمينة تح: حسن حسني عبد الوهاب التونسي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1994م، ص 19
69) المقدسي : المصدر السابق ، ص 128

70) الجرب : الرقة من الثوب القطعة من القماش الزبيدي تاج العروس، ج 21، ص 113.
71) الخلاخيب: هو الخلخال الذي تلبسه المرأة نوع من الحلي له صوت يلبس في الساق، ابن منظور، لسان العرب، ج 11، ص 221
72) الزبيدي: محمد حسين الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأول هجري، القاهرة، 1965م ص 205

المصادر والمراجع

2) ابن الأثير: مجد الدين أبو السعادات،(1969) جامع الأصول، دار صادر ، بيروت
3) ابن الفقيه : أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني ،(1996) ، البلدان، مكتبة عالم الكتب ، بيروت
4) ابن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي ،،(1997م)، الفهرست تح إبراهيم رمضان ،ط ،2 ، دار المعرفة، بيروت
5) ابن حجر العسقلاني: (1998م) المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، 19 مج، تج: سعد بن ناصر بن عبدالعزيز الشثري، دار العاصمة، دار الغيث السعودية، ج 17
6) ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع الزهري ،،(1990م)، الطبقات الكبرى، 8 مج، تح محمد عبد القادر عطاء الكتب العلمية، بيروت ج 7
7) ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء عماد الدين ،(1997م)، البداية والنهاية، 21 مج، تح عبدالله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، السعودية
8) ابن مالك : محمد بن عبدالله ابن مالك الطائي الجياني ، (1990م)، شرح تسهيل الفوائد، مج 4 تح عبد الرحمن السيد محمد بدوي المختون، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ج 3
9) ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور ،(2016) لسان العرب، دار صادر ، بيروت
10) أبو الأسود أبو الأسود الديلي، ويقال الدؤلي البصري ايمه ظالم بن عمرو بن سفيان، ويقال: عمرو بن عثمان أو عثمان بن عمرو ،خليل محمود محمد، وآخرون، موسوعة أقوال الإمام أحمد بن حنبل في رجال الحديث وعلله ،عالم الكتب،(د. م)،(1997م)، ج 4
11) أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم ، ،(2001م) مجمع الأمثال 2 مج تح محمد محيى الدين عبد الحميد دار المعرفة ،لبنان، (د.ت)، ج 2،
12) الفاسي، محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، أبو الطيب المكي ،(2003م) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، 2 مج، دار الكتب العلمية، بيروت ج 2
13) الرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ،(1986م) مختار الصحاح مكتبة لبنان بيروت
14) الإدريسي: محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي (1989م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق 2 مج، عالم الكتب، بيروت ج ،1
15) الاصبهانى : أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران ،(1998م) معرفة الصحابة 7 مج، تح: عادل يوسف الفراري، دار الوطن الرياض،
16) الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد الأصفهاني ، (2016) ، الأغاني، تحقيق د. إحسان عباس ود. إبراهيم السعافين والأستاذ بكر عباس. ، دار صادر . بيروت ج 7،
17) البلاذري : احمد بن يحيى بن جابر، ،(1992) ،فتوح البلدان، تحقيق ابراهيم بيضون ، دار اقرأ ، بيروت
18) التميمي، أبو عبد الرحمن عبدالله بن عبد الرحمن بن صالح بن محمد بن حمد بن إبراهيم البسام،(2003) توضيح الأحكام في بلوغ المرام، 7 مج مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، ط ،5، ج 2،
19) الجاحظ : (1994م)، التبصرة بالتجارة في وصف ما يستظرف في البلدان من الأمتعة الرفيعة والأعلاق النفيسة والجواهر الثمينة تح: حسن حسني عبد الوهاب التونسي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3،

20) الجاحظ : ابو عثمان عمرو بن بحر البصرى ، (1990م) رسائل الجاحظ، تح :عبد السلام محمد ،هارون دار الجيل بيروت، ص 261
21) الحمداني، ياسر بن أحمد بن محمود بن أحمد بن أبي الحمد الكويس ، (2006) ، حياة التابعين، دار المعرفة للطباعة والنشر ، القاهرة
22) الحموي، شهاب الدين ابو عبدالله الحموى ،(2008) معجم البلدان، ج2، تحقيق محمد عبدالرحمن ، دار احياء التراث العربى ، بيروت
23) الزبيدي: محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي (1965م) ، تاج العروس من جواهر القاموس، دار المعرفة للطباعة والنشر ، القاهرة،
24) السمعاني: أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي المروزي ،الأنساب 13 مج، تح عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، الناشر مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد(1962م)، ج 7
25) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (1966م)، شرح شواهد المغني، دار أقر ، القاهرة
26) الأصبهاني : أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران ،(1998م)، معرفة الصحابة 7 مج، تح: عادل يوسف الفراري، دار الوطن الرياض
27) الطبري: محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم ، ج 5، دار المعارف ، القاهرة (د . ت)
28) المقدسي : شمس الدين ابو عبد الله محمد ،(1991) احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، ط 3 ، مكتبة مدبولى ، القاهرة
29) المنجم إسحاق بن الصين ،(1988م)، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان عالم الكتب، تح فهمي ،سعيد، بيروت،
30) اليعقوبي : احمد بن اسحاق ابو يعقوب،(2002) ، البلدان، دار الكتب العلمية ، بيروت
31) جواد علي ،،(2001م) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 20 مج، دار الساقي، بيروت، ط 4 ، ج13
32) سعدون : بن حسين ، (2006م) البصرة ذات الوشاحين (التاريخ والسياسة والثقافة) مكتبة مدبولي، القاهرة
33) صالح عبد العزيز حميد :(1971م)، تاريخ الخط العربي عبر العصور المتعاقبة، ، دار الكتب العلمية، بيروت
34) كج جي : صباح اسطفيان (2002م)، الصناعة في تاريخ وادي الرافدين (د.د) ،بغداد